

الفرقان
في تفسير القرآن
بالقرآن والسُّنة

الفرقان

في تفسير القرآن

بالقرآن والسنة

الجزء الرابع عشر

تتمة سورة يونس - سورة هود - سورة يوسف

سماحة الشيخ

الدكتور محمد الصادقي



تتمة

سورة يونس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرَبَةً ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيْمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلْ أَنْظِرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُجِى رَسُولَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شكٍ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّكُمُ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَعْمَدَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِنْ

يَمَسَّكَ اللَّهُ بِضُرِّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ
لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مَن عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٧﴾ قُلْ
يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي
لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٧٨﴾ وَاتَّبِعْ
مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٧٩﴾

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ
لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ ﴿٩٤﴾ :

أترى رسول الله ﷺ كان أو أمكن أن يكون في شك مما أنزل إليه؟
حتى يخاطب هكذا أمام العالمين، ومنهم المرتابون في أمره، المكذبون
إياه؟ أم هل يرتاب، وكيف يجوز عليه الشك والامتراء وقد باشر فؤاده برد
اليقين، تلقياً عن الله بما أنزل به الروح الأمين على قلبه ليكون من المنذرين
بلسان عربي مبين؟! والشاك في وحي القرآن ليس مؤمناً فضلاً عن يكون نبياً
هو إمام كافة النبيين؟! .

فهل المخاطب هنا هو النبي ﷺ؟ فليس في شك فيما أنزل الله عزَّ
وجلَّ إليه! وإن كان المخاطب به غيره؟ فالى غيره إذا أنزل الكتاب! فقد
يكون الشك في أصل نزول الوحي إليه لأنه بشر يأكل ويمشي في الأسواق،
أمام المجاهيل الذين يتساءلون كيف ينزل الوحي على بشر (١) .

ثم ﴿أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ لا تختص بمنزل الوحي الرسولي، فقد يعني منزله
الرسالي من المرسل إليهم وكما ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا

(١) وهذه من شطحات الحداد البيروتي في ١ : ١٧٩ - القرآن والكتاب حيث يقول: إذا شك
محمد فليسأل علماء الكتاب، أليس هذا دليلاً على أنهم أساتذته، أجل فإحالة محمد نفسه
على أهل الكتاب ليزيل شكوكه عندهم دليل قاطع لا مرد له أنهم أساتذته ومدرسه .

إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴿١﴾ فكما ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ ﴿٢﴾ كذلك ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ ﴿٣﴾ مهما اختلف إلى عن إلى: ﴿فَقُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ﴿٤﴾ حيث يجمع بين الإنزالين «إلى» مهما يفرد إلى المرسل إليهم أحياناً كما مضى وفي ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ ﴿٥﴾ و﴿هَلْ تَقْمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ ﴿٦﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ ﴿٧﴾ وما أشبهه من عشرات، وأخرى يفرد «إلى» لمنازل الوحي الرسولية.

فقد يعني من «كنت» كل من هو في شك أو كاد فعلية أن يسأل الذين يقرءون الكتاب من قبله، ليتأكد أن القرآن هو أكد الوحي الصادق الأمين حين يقاس إلى سائر الوحي، إضافة إلى شهادة سائر الوحي على صدق القرآن ونبيه.

ولئن كان المخاطب هو الرسول ﷺ أم هو معني مع سائر المكلفين فقد يعني قاطع البرهان المثبت لوحي القرآن لكل شاك فيه، فهو معني من باب إياك أعني واسمعي يا جارة، وكما في ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ ﴿٨﴾ حيث وُحِدَ ثم جمع ليعلم أن الخطاب للأمة وليس الرسول إلا حاملاً له كسائر رسالاته الربانية.

وكيف يشك وهو يوحى إليه بمثل هذه الآية، فإن واقع الوحي هو واقع البرهان على صدقه!

ثم وفيم يشك محمد ﷺ ﴿مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾؟ أشكا في أصل إنزاله؟ فقد ﴿أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾! ولا يزيل شكه لو كان في شك منه مثل هذه الآية التي هي

- | | |
|------------------------------|--------------------------------|
| (١) سورة النساء، الآية: ١٧٤. | (٥) سورة آل عمران، الآية: ١٩٩. |
| (٢) سورة الطلاق، الآية: ١٠. | (٦) سورة المائدة، الآية: ٥٩. |
| (٣) سورة النساء، الآية: ١٧٤. | (٧) سورة المائدة، الآية: ٦٦. |
| (٤) سورة البقرة، الآية: ١٣٦. | (٨) سورة الطلاق، الآية: ١. |

أيضاً ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾! إلا أن يزيل شك شكاً مثله، بل والمزيل أضعف حيث يسند إلى الذين يقرءون الكتاب، أم شكاً في أنه نسخة عربية من الكتاب الإمام وأن علماء الكتاب هم أساتذته «فيما أنزلنا إليك» من هذه الترجمة؟^(١) ولا يشك أي عاقل بسيط ولا سفيه في «من علمه»! فضلاً عن أعقل العقلاء على مدار التاريخ كما يصدقه عقلاء التاريخ!

ذلك، وهنا عشرات من الآيات تقرر موقف القرآن أنه الكتاب الأخير النازل من عند الله إلى محمد مهيمناً على ما بين يديه من كتاب، وناسخاً بعض أحكامها ومكملاً أخرى، وناقداً ثالثة، المحرّفة عن جهات أشراعها!.

أم شكاً في معانيه ومغازيه؟ وهو أفضل الراسخين في العلم! وهو ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾^(٢)! ومهما يكن من شك في القرآن فهو لغير المؤمنين به المخاطبين بمثل ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٣).

فتراه داخلاً في هذا الخطاب وهو ﴿عَبْدِنَا﴾ المنزل عليه القرآن، ولو كان شاكاً بين الشاكين فأية التحدي هذه أيضاً هي من المشكوك فيه فكيف يتحدى بها؟!، وكيف يشك هو المنزل إليه ولا يشك الذين يقرءون الكتاب ولم ينزل إليهم حتى يستعلمهم فيه، ولماذا - إذاً - لا يستعلم ربه المنزل إليه ويسأل هؤلاء الذين أكثرهم له منكرون، فليكونوا هم الداعون بالقرآن دونه لأنهم يزيلون شكه!.

(١) نور الثقلين ٢: ٣١٩ في العلل بإسناده إلى إبراهيم بن عمير رفعه إلى أحدهما ﷺ في الآية قال قال رسول الله ﷺ: لا أشك لا أشك.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٩.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٣.